(c) www.nidaulhind.com

الشيخ الندوي
حامل لواء العربية في القارة الهندية

بقلم : الأستاذ محمد حسن بريغش

من أبرز مميزات الشيخ أبو الحسن الندوي شخصيته الموسوعية ، وجوانبه المتعددة : فهو العالم الداعية ، والأستاذ المربي ، والمفكر والمثقف ، والأديب والمؤرخ ، والمصلح ... ، وكل هذه الجوانب كانت تمثل ذلك النموذج الحي الإنساني ، والداعية الإسلامي الذي تجاوز محيط الوطن ، والبلد ، واللغة ، والقارة ، والبيئة الخاصة ، إلى العالم الرحب ، والإنسانية المكرّمة ، والدين الذي اختاره الله ليكون منهجاً للعالمين ، ودنياً لبني البشر جميعاً .

الكثيرون من المسلمين والدعاة يتحدثون عن عالمية الإسلام ، ولكن القليلين منهم من يستطيع تحقيق هذا المعنى في دعوته ، و نشاطاته المختلفة : العلمية ، والتربوية ، والفكرية ، والأدبية .

والشيخ أبو الحسن الندوي - يرحمه الله تعالى - كان مثالاً لهذا النوع من العلماء والدعاة ، بثقافته الموسوعية الشاملة من ناحية ، وعدم اقتصاره على دراسة علم واحد ، والتخصص به ، وكذلك بتوجهه إلى العالم الإسلامي كله من شرقه في الهند ، وشعوب شرق آسيا ، وإلى حدود المغرب الأقصى على شواطئ الأطلسي ، ومن أوربا وأمريكا إلى جنوب إفريقيا ، وكتبه وأحاديثه ورحلاته ، وموضوعات فكره وتراجمه تؤكد ذلك بصورة واضحة .

(c) www.nidaulhind.com

وكان لنشأة الشيخ في أسرة علم وفكر ودعوة وصلاح (١) أثر في حياته هذه ، حيث بدأ اهتمامه بالكتب والقراءة والمطالعة ، ثم الكتابة منذ نعومة أظفاره ، ويبدو هذا الأثر كبيراً في تربية الشيخ ونشأته الدينية والخلقية والعلمية ، فأبوه السيد عبد الحي الحسني من العلماء ، والكتاب المشهورين في الهند ، ومن كبار المؤلفين في القرن الرابع عشر الهجري ، حيث ترك مؤلفات كثيرة أضحت مرجعاً للكتاب والباحثين ، مثل كتابه : "نزهة الخواطر" الذي يعد موسوعة علمية تشتمل على تراجم نحو خمسة آلاف كاتب وعالم في الهند ، وقد طبع الكتاب في مجمع اللغة العربية في دمشق في ثمانية مجلدات ، وكذلك كتابه : "الثقافة الإسلامية في الهند" إلى جانب كتب كثيرة في التاريخ والأدب والطب ، وبلغت مؤلفاته نحو ثمانية عشر كتاباً في اللغات العربية و الأردية ، و الفارسية (٢) ، و أكثرها يعد مرجعاً في بابه ، ويدل على علم ومواهب كثيرة .

وأمه السيدة خير النساء كانت من الفضليات ، كانت تحفظ القرآن الكريم ، وذات ثقافة دينية جامعة ، وتقول الشعر ، وتحافظ على العبادات والأذكار والأدعية ، وكانت كثيرة الدعاء ، وقيام الليل ، نُشرت لها عدة كتب ، ومجموعات من الشعر ، وهي من المربيات النادرات اللوائي ، يعرفن كيف ينشئن أولادهن على الدين و الخلق و العلم و الاستقامة (٣) ، ويذكر المؤلف كيف كانت والدته تحثه على أداء الصلوات الخمس ، مهما كانت الظروف ، وتحفظه سور القرآن الكريم ، وتلقنه الكثير من الأمور بطريقة عملية .

---

(١) في مسيرة الحياة : ج/١ ، ص/٦ .

(٢) انظر كتاب : "العلامة السيد عبد الحي الحسني" تأليف الدكتور السيد قدرة الله الحسيني .

(٣) السابق : ص/١٧٥ . وكتاب في مسيرة الحياة : ٤١/١ .

(c) www.nidaulhind.com

ومن ذلك أنها كانت لا تتساهل معه - بعد وفاة والده - إذا تعدّى على أبناء الخادم أو الخادمة أو أي طفل من أطفال الفقراء والمساكين ، أو عامله بالعجب والكبر ، أو إهانة ، أو احتقره ، بل تعاقبه على ذلك ، ثم تأمره بأن يطلب العفو من هذا الطفل المسكين ، و يتصاغر أمامه ، مهما كان ذلك ، ولو شعر بالإهانة وجرح الكرامة ، وبهذا تربى الطفل على الخوف من العجب والكبر والظلم والعداء ، وعرف أن إيذاء شخص وكسر قلبه واحتقاره كبيرة من الكبائر ، وأصبح هذا الخلق بعد ذلك سبيلاً للاعتراف بالخطأ ، والإقرار بالغلط في جميع حياته .

ومن الأمور التي أثرت فيه أيضاً حرص والديه على أن يكون طعامهم حلالاً بعيداً كل البعد عن الحرام والأموال المريبة (١) .

وإلى جانب إتقان الشيخ منذ الصغر للأردية ، وتعلّم الفارسية ، حرصت أسرته على تعليمه العربية ، وبدأ ذلك في أواخر عام ١٩٢٤م (٢).

وتولى تدريسه العربية أحد الأساتذة (الشيخ خليل بن محمد) الذي اختار كتاباً من كتب القراءة المقررة في مصر لتعليمه مع طالب آخر العربية ، وكان يتلقى هذه الدروس في البيت ، وإلى جانب هذا الكتاب كان يختار لهما كتباً أخرى ، ويعلمهم النحو من أحد الكتب القديمة السهلة ، وكان هذا الأستاذ يلزم تلميذيه التكلم بالعربية أثناء الدروس ، فإذا تكلم أحدهما بالأردية ، أو أخطأ بالعربية دفع بعض الفلوس القليلة غرامة عن خطئه ، وكان يحرص في تعليمهما على صحة القراءة مع الفهم ، ويلزمهما حفظ بعض النصوص الشعرية والنثرية ، ثم اختار لهما بعض الكتب

---

(١) في مسيرة الحياة : ٧٢/١-٧٣ .

(٢) أي كان عمر الشيخ آنذاك عشر سنوات لأنه ولد في ٦/محرم الحرام ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٤م .

(c) www.nidaulhind.com

لقراءتها ، والاستزادة من فهم العربية وتذوقها ، والاطلاع على تراثها مثل كتاب : "نهج البلاغة" ، و "مقامات الحريري" ، و "دلائل الإعجاز" ، و "القصائد العشر" ، ويذكر الشيخ الندوي - يرحمه الله - أثر معلمه : "وقدرته المدهشة في صبغ الطلاب بآرائه وأفكاره ، وتأثيره الكبير فيهم ، ونفخ الروح في الكتاب الذي يدرسه الطلاب ، وإنشاء الذوق الصحيح ، والملكة الصالحة في الفن الذي يتناوله ، وتقريب الطلاب إلى مؤلف الكتاب ذوقاً ومسلكاً ومشرباً" (١) .

وكان الأستاذ ، كما يصفه الندوي : "صاحب ملكة عجيبة في التذوق الصحيح للعربية وآدابها ولغتها ، ونقل هذا التذوق إلى الطلاب" ، وكان لهذه الميزة عند الأستاذ أثره الجم في تعلم الشيخ الندوي العربية ، وتذوق آدابها ، بل محبتها وإتقانها في وقت مبكر .

ثم قدر لهذا الطالب الناجح أن يقوم بصحبة أحد أقربائه برحلة إلى لاهور ، كجائزة على نجاحه ، وكرمز للسرور والتشجيع له ، وكانت لاهور - آنذاك - أكبر مركز ثقافي وأدبي وصحافي في شبه القارة الهندية ، وفي هذه الرحلة التقي بالشاعر الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي احتفى به ، وقدمه قريبه للشخصيات العلمية هناك بأنه ابن مؤلف كتاب "كُلِ رَعْنَا" ، وهو من كتب والده الذي يترجم فيه لكثير من الشعراء المجيدين بالأردية ، حيث كان لهذا الكتاب شيوع وأهمية في الهند ، وعرف الشاعر إقبال بأن هذا الفتى الصغير ، وكان عمره آنذاك (ما بين ١٥-١٦/ سنة) قد ترجم بعض أشعاره نثراً للعربية .

وتعرف هناك إلى عدد من الأساتذة والعلماء ، ولا سيما من كان مشهوراً بالعربية ، وله مؤلفات كثيرة فيها ، ومنهم الأستاذ الدكتور محمد

---

(١) في مسيرة الحياة : ٧٩/١ .

(c) www.nidaulhind.com

شفيع الذي نال لقب (نجم باكستان) فيما بعد ، لمكانته العلمية والأدبية .

واطلع هذا الأستاذ الشهير على بعض مقالات الندوي آنذاك ، وكتاباته بالعربية ، ثم نصحه بأن يتخذ العربية موضوعه ، ويركز عليها ، ويختص بها .. وكان لهذه النصيحة أثرها - أيضاً - في ضلوع الشيخ بالعربية وإتقانها ، وزيادة اهتمامه بها .

ثم استمر في دراسة الحديث الشريف ، والتفسير ، وبقية علوم الشريعة ، حتى توسعت ثقافته ، و ازدادت معارفه ، وقويت لغته .

ومن أهم الأحداث التي عمقت فهمه للعربية وحبه لها قدوم الشيخ تقي الدين الهلالي إلى دار العلوم في ندوة العلماء ، ويصفه الشيخ الندوي بأنه : "من أساتذة اللغة العربية ، وفضلائها المعدودين الذين يحتج برأيهم ، وحكمهم على صحة الكلمات وأصالتها .." (١) وأن نشر الطرق الصحيحة لتعليم العربية الذي بدأها أستاذه الأول الشيخ خليل ، قد تمَّ وبلغ كماله على يد الأستاذ الهلالي .

واستفاد الندوي من الشيخ الهلالي فائدة كبيرة ، واستفاد من دروسه ومجالسه ، وقرأ عليه ديوان النابغة ، ثم تابع الندوي اطلاعه على كتب العربية ، ودراسة الأمهات من كتب النثر والشعر ، والتراجم والنقد ، وابتدأ في ذلك الوقت بكتابة المقالات ، وترجمة الموضوعات المهمة من الأردية للعربية ، ونشر بعضها في مجلة "المنار" التي كان يصدرها السيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده .

ثم توالت كتاباته في العربية التي نشرها في عدد من المجلات المشهورة ، مثل : "المنار" ، و "الفتح" التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب .

---

(١) في مسيرة الحياة : ج/١ ، ص/٩٧ .

(c) www.nidaulhind.com

وبعد هذه الرحلة العلمية التي تتلمذ فيها على كبار العلماء والمربين في عصره عين مدرساً في ندوة العلماء في عام ١٩٣٤م ، وكان عمره عشرين سنة ، وكان تعيينه فرصة لزيادة الاطلاع والقراءة على العلوم الإسلامية والعربية لإثبات جدارته في التدريس ، وزادت علاقته بالعربية ، واهتمامه بالأدب عندما ما درَّس تاريخ الأدب العربي للسنة العالمية الأخيرة في ندوة العلماء ، وكذلك في تدريسه لعدد من الأبواب الحديثية في صحيح البخاري ، مثل : (كتاب الوحي ، وكتاب الإيمان ، وكتاب العلم) ، وكان يشعر بلذة ومتعة في شرح الأحاديث وتدريسها للطلاب .

وألف في هذه المرحلة كتابه الشهير (سيرة السيد أحمد الشهيد) الذي نال شهرة ، وقبولاً في الأوساط العلمية والإسلامية .

وفي عامي ١٩٣٤م و ١٩٣٥م زار للمرة الثانية والأخيرة الشاعر محمد إقبال ، واطلع على شعره في ديوان (ضرب كليم) فزاد إعجابه بالشاعر ، و تأثر بشعره ، و عرف فيه سمو الأفكار ، و جمال النغمة ، و حلاوة الجرس .

كما اطلع على البحوث التي كتبت عن الشاعر ، ثم كتب (روائع إقبال) الذي يوضح فيه سبب إعجابه بالشاعر ، وتأثره بشعره بعد أن أصدره كموضوعات في مجلة "الفتح" ، واختار نماذج رائعة من شعر إقبال ، وترجمها بأسلوبه الأدبي الجيد .

وازداد حبه للأدب ، والعربية ، ولذلك حرص في دار العلوم ندوة العلماء على إصلاح مناهج تدريس اللغة العربية في الكلية ، وعمل على تأليف كتاب لمادة الأدب العربي يحتوي على مختارات من النصوص الأدبية الجميلة ، والبعيدة عن التكلف اللفظي ، والحلى البديعية المتكلفة .

وتقديراً لجهوده في تعليم العربية ، واهتمامه بها ، وكتابته فيها اختير في عام ١٩٥٧م عضواً في المجمع العلمي بدمشق الذي أصبح فيما

(c) www.nidaulhind.com

بعد (مجمع اللغة العربية) ، ولَفت في مقال له في مجلة المجمع الحاجة إلى استعراض الأدب العربي وتاريخه استعراضاً جديداً ، واستخراج كثير من النصوص الأدبية الجيدة التي لا تزال مغمورة ومطمورة تحت الركام ، ودعا في هذه المقالة إلى الخروج من النظرة الضيقة للأدب ، إلى نظرة شاملة تتذوق مختلف النصوص الأدبية من كتب التاريخ والتراجم والحديث والسيرة .. إلخ ، وترجم هذه الآراء بما اختاره في كتاب المختارات لعدد من العلماء و الدعاة و الأدباء ، مثل : الحسن البصري ، و ابن السماك ، و الغزالي ، وابن الجوزي ، والبستي ، والتوحيدي ، وابن تيمية ، وابن القيم ، و ابن خلدون ، و عمر بن عبد العزيز ، و الرافعي ، و كرد علي ، و سيد قطب ، والزيات ، وعلي الطنطاوي وغيرهم (١) .

وكذلك وضع سلسلة من الكتب للمراحل الأولى في ندوة العلماء في العربية بدلاً من كتب القراءة التي كانت تشترى من مصر ، وتدرس للطلبة ، وكان ذلك في عام ١٩٤٤م .

كما ألف في هذه الفترة "قصص النبيين" للأطفال ، التي نجحت نجاحاً كبيراً في حسن اختياره للألفاظ ، والأسلوب المناسب لسن الأطفال ، فضلاً عن اختيار الحوادث والموضوعات التي ترسخ مفهوم العقيدة الصحيحة ، وحب الإسلام ، وعمق الإيمان ، وكره الكفر والشرك ، والتزود بالسلوك ، والأخلاق الحسنة ، وطُبع هذا الكتاب في أكثر بلدان العالم العربي طبعات كثيرة .

واختتم هذه السلسلة بسيرة خاتم النبيين محمد ﷺ بأسلوب جميل وبسيط يتلاءم مع سن الأطفال والفتيان .

لقد كان تعلّم الشيخ الندوي للعربية منذ صغره وإتقانه لها أثره في

---

(١) انظر : كتاب مختارات من أدب العربي - للشيخ أبي الحسن الندوي .

(c) www.nidaulhind.com

أسلوب تفكيره ، ودعوته ، وخروجه من إطار الإقليمية الضيقة إلى رحابة العالم الإسلامي ، وبالتالي أصبح له شأن بين الدعاة ، والكتاب ، والمفكرين الإسلاميين ، وفتح ذلك للشيخ الندوي آفاقاً رحبة ليخاطب المسلمين في جميع الأقطار العربية ، وليوثق الصلة مع المصلحين والمفكرين والأدباء في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، بل دفعه ذلك لإنشاء المقالات المناسبة لمخاطبة شعوب الأمة العربية في الحجاز ، ومصر ، والشام ، والمغرب الغربي ، ويعيد الشيخ الندوي هذا الاهتمام بالعربية ، والنتائج التي حصل عليها لأخيه الأكبر الذي تولى تربيته بعد وفاة والده ، وتركيزه على تثقيف أخيه الصغير بالثقافة العربية الأدبية ، وهذا يدل على بعد نظر من أخيه ، في الوقت الذي لم تكن هناك علاقات سياسية ، وثقافية ، واقتصادية بين الهند والعالم العربي ، ولم يكن شأن للعربية في المدارس الإسلامية في الهند ، وكان بعضهم يعد تعلّم العربية إضاعة للوقت.

ولكن نظرة أخيه المربي الثاقبة جعلت الشيخ الندوي يتقن العربية ، ثم يبدأ الكتابة بالعربية ، ومراسلة المجلات الشهيرة ، ثم يقوم بالسفر إلى البلدان العربية مرات عديدة ، والاستفادة من هذه الرحلات فائدة عظيمة ، حيث وجد فرصة لعرض آرائه ، والتعبير عن مشاعره أمام الأوساط العلمية ، والأدبية ، والفكرية في العالم العربي ، ومخاطبة كبار رجاله والعلية من فضلائه وعلمائه ، وتبادل الآراء مع أصحاب الأقلام والمفكرين فيه (١) .

ونتج عن ذلك عدة مؤلفات حملت هذه الآراء ، وجمعت المقالات والموضوعات التي كتب فيها في هذه الفترة ، مثل : (مختارات من العرب) الذي ألفه في عام ١٩٤٠م ، و (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟) الذي ألفه في عام ١٩٤٤م ، وكان له أثر كبير ، ونال اهتماماً وعنايةً بالغةً لما

---

(١) في مسيرة الحياة : ج/١ ، ص/١٧٢-١٧٣ .

(c) www.nidaulhind.com

تضمن من معلومات وآراء وحقائق بالغة الأهمية ، وللأسلوب الأدبي المملوء بالصدق والحماس والتدفق ، كما كتب عدة رسائل ، مثل : إلى ممثلي البلاد الإسلامية ، الصراع بين الفكرة الإسلامية ، والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين ، ارتباط مصير الإنسانية و مسيرتها بقيام المسلمين بواجبهم ، و أريد أن أتحدث إلى الإخوان ، أسبوعان في المغرب الأقصى ، الإسلام فوق القوميات والعصبيات ، اسمعوها مني صريحة أيها العرب ! اسمعي يا إيران ! اسمعي يا زهرة الصحراء ! اسمعي يا سورية ! اسمعي يا مصر ! أكبر خطر على العالم العربي المؤمرات والمخططات الدقيقة العميقة لقطع العرب عن الإسلام ، إلى الراية المحمدية أيها العرب ! بين الجباية والهداية ، بين الصورة والحقيقة ، بين العالم وجزيرة العرب ، بين نظريتين ، تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية ، دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها ، دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة ، وحماية الأقطار الإسلامية من التناقض والمجابهة ، ردة ولا أبا بكر لها ، الطريق إلى المدينة المنورة ، العرب و الإسلام ، عاصفة يواجهها العالم الإسلامي و العربي ، العرب يكتشفون أنفسهم ، العوامل الأساسية في كارثة فلسطين ، الفتح للعرب المسلمين ، من دون أحد ، من غار حراء ، نحن الآن في المغرب ، نظرة جديدة إلى التراث الأدبي ، نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان ، مذكرات سائح في الشرق العربي ، ثلاثة أيام في لبنان ، وغيرها من الرسال والكتب والمقالات .

لقد كان لتعلمه العربية نتائج أخرى أفادت الدعوة والفكر عموماً ، كما أفادت في تبني تعليم العربية في ندوة العلماء ، وفي جميع المدارس والجامعات الإسلامية في الهند ، حتى أصبح الكثيرون ممن يهتمون ببعث اليقظة الإسلامية في القارة الهندية ، يهتمون بالعربية دراسة وتدريساً اهتمامهم باللغة الأردية ، أو غيرها من اللغات الهندية .

وكان لتأثير الشيخ أبو الحسن الندوي - يرحمه الله - في ندوة العلماء

(c) www.nidaulhind.com

وبرامجها ، ومعه كثير من إخوانه و طلابه نتائج حسنة في ظهور دراسات وبحوث في اللغة العربية ، وترجمة العديد من الكتب والأشعار من الأردية للعربية ، وبالعكس وزيادة التقارب بين أبناء الدعوة في الهند ، والأقطار العربية ، فضلاً عن إنشاء عدد من المجلات التي تصدر باللغة العربية ، وتنشر الكثير من الموضوعات والبحوث المختلفة ، وآخرها مجلة : "البعث الإسلامي" .

إن اللغة العربية هي لغة كتاب الله عزّوجل ، ولغة رسول الله محمد ﷺ ، ولغة الحضارة الإسلامية الواسعة المتمثلة في الكنوز الكثيرة من المؤلفات والمخطوطات في مختلف العلوم والمعارف .

والاهتمام بها جزء من الاهتمام بهذا الدين ، والحرص عليه مرتبط - أيضاً - بالحرص على العقيدة والدين .

وما زالت أذكر وأنا أحضر حفلاً في مدينة (أورنغ آباد) في الهند ، بمناسبة انعقاد ندوة أدبية ، حيث وقف أحد الطلبة الصغار من القسم الإعدادي (المتوسط) ، وألقى كلمة في العربية لم يخطئ فيها بكلمة أو حرف أو حركة ، كلمة بليغة مؤثرة جعلتني لا أتمالك نفسي من ذرف بعض الدموع تأثراً، وهو يقول : إننا نحب العربية ، لا لأنها لغة الشعوب العربية ، ولكن لأنها لغة القرآن الكريم ، كتاب الله المنزل من السماء ، ولغة رسول الله ﷺ رسول رب العالمين .. ومضى في خطبته هذه يتحدث عن مزايا العربية وارتباطها بالإسلام وأهميتها في مجال العلم .

نذكرت هذا ، وأنا أرى وأسمع في العالم العربي ، كيف تنتهك العربية على أيدي أبنائها ، وكيف تهجر إلى العاميات وإلى اللغات الأخرى ، افتتاناً وتنكراً وإثماً .

رحم الله الشيخ الندوي ، حامل لواء العربية في القارة الهندية ، وصاحب المؤلفات الكثيرة ، والداعية الذي امتد تأثيره على امتداد العالم الإسلامي كله ، والعالم الزاهد الذي ترك للمسلمين كثيراً من الرسائل والمؤلفات التي ما زالت تنبض بالإخلاص والحياة ، وتؤثر في العقول والقلوب .